تمهيد :

نحن أمام قصة واقعية وإن تبادر إلى الذهن أنها قصة خيالية, تظهر واقعيتها وإبداع كاتبها في تصوير ما يدور في نفوس الخاصة والعامة من الناس عند عرض قضية عودة الشهداء عليهم، يتم سرد القصة عن طريق رسالة يتسلمها بطلها وهو شيخ كبير, ثم يبدأ سير هذه القصة عن طريق حوار يتم بين البطل أو الشخصية الرئيسة وبين المعروض عليه الرسالة ثم يتم الكشف عما بداخل كل شخصية عن طريق المناجاة.

أما أشخاص الرواية فهم من كل طبقة, والبطل رجل أو شيخ كبير مات ابنه مصطفى في جهاده ضد الأعداء وباقي الشخصيات ما بين مناضل أو مجهاد أو خائن أو ابن خائن أو أب شهيد ، هم ما بين شيخ الجامع إلى شاب يقف في مطعم إلى شيخ بلدية القرية إلى رئيس مقر القسمة وغير ذلك. ولا يغفل دور النساء وإن بدوا على نجا من الأرض صغير.

أما الزمن فهو زمن صغير لا يتجاوز صباح يوم يبدأ بتسلم العابد – الشخصية الرئيسة– وينتهي بانتحاره أمام القطار, وهو زمن تصاعدي يغطي الرواية بيد أنه زمن تراجعي عند مناجاة كل شخصية, هذا الزمن تجده إما زمناً ماضياً أو زمناً حاضراً.

أما عن أثر مرور الزمن ونشاطه في القصة وعن" تجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفي غير الظاهر لا من خلال مظهره في حد ذاته." –انظر في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد لدكتور عبد الملك مرتاض– فسنتحدث عنه فيما بعد.

أما المكان الذي تدور فيه القصة فهو قرية صغيرة ومن الواضح من خلال بلد المؤلف ومن بعض المصطلحات الواردة في القصة أن تلك القرية تنتمي إلى الجزائر والتي تنتمي إلى زمن النضال والجهاد واسترجاع الحق والزمن الذي قدمت فيه الجزائر أكثر من ألف ألف شهيد، ويبدأ ظهور المكان بصعود الشيخ إلى الطرف الآخر وفجأة يتجه إلى أسفل حيث القطار. والقطار يلتقي فيه الزمن المتجدد بالأمكنة الثابتة إلى حدٍ ما.

المبحث الاول: ملخص رواية الشهداء يعودون هذا الاسبوع

نحن أمام قصة واقعية وإن تبادر إلى الذهن أنها قصة خيالية, تظهر واقعيتها وإبداع كاتبها في تصوير ما يدور في نفوس الخاصة والعامة من الناس عند عرض قضية عودة الشهداء عليهم.

يتم سرد القصة عن طريق رسالة يتسلمها بطلها وهو شيخ كبير, ثم يبدأ سير هذه القصة عن طريق حوار يتم بين البطل أو الشخصية الرئيسة وبين المعروض عليه الرسالة ثم يتم الكشف عما بداخل كل شخصية عن طريق المناجاة. أما أشخاص الرواية فهم من كل طبقة, والبطل رجل أو شيخ كبير مات ابنه مصطفى في جهاده ضد الأعداء وباقي الشخصيات ما بين مناضل أو مجهاد أو خائن أو ابن خائن أو أب شهيد.

هم ما بين شيخ الجامع إلى شاب يقف في مطعم إلى شيخ بلدية القرية إلى رئيس مقر القسمة وغير ذلك. ولا يغفل دور النساء وإن بدوا على نجا[2] من الأرض صغير. أما الزمن فهو زمن صغير لا يتجاوز صباح يوم يبدأ بتسلم العابد – الشخصية الرئيسة– وينتهي بانتحاره أمام القطار, وهو زمن تصاعدي يغطي الرواية بيد أنه زمن تراجعي عند مناجاة كل شخصية, هذا الزمن تجده إما زمناً ماضياً أو زمناً حاضراً. [1]

أما عن أثر مرور الزمن ونشاطه في القصة وعن" تجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفي غير الظاهر لا من خلال مظهره في حد ذاته." –انظر في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد لدكتور عبد الملك مرتاض– فسنتحدث عنه فيما بعد.

[1] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، دار الهدى للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2012م، ص9

أما المكان الذي تدور فيه القصة فهو قرية صغيرة ومن الواضح من خلال بلد المؤلف ومن بعض المصطلحات الواردة في القصة أن تلك القرية تنتمي إلى الجزائر والتي تنتمي إلى زمن النضال والجهاد واسترجاع الحق والزمن الذي قدمت فيه الجزائر أكثر من ألف ألف شهيد.

ويبدأ ظهور المكان بصعود الشيخ إلى الطرف الآخر وفجأة يتجه إلى أسفل حيث القطار. والقطار يلتقي فيه الزمن المتجدد بالأمكنة الثابتة إلى حدٍ ما. أما لغة القصة فهي بعيدة عن العامية إلا في كلمات قليلة جداً. والحوار فيها قليل أيضاً واللغة تناسب شخصياتها فليست لغة قوية بل هي لغة بسيطة سهلة[1].

فلنأخذ التحليل من العنوان الذي قدم فيه الكاتب الفاعل على الفعل للاهتمام بمن سيعود ولجعله مبتدأ في كل شئ, ثم جعل الظرف مشاراً إليه " بهذا " دلالة على قرب العودة ليمنع المعروض عليه السؤال من التسويف ليأخذ منه رداً عاجلاً واجتماعاً طارئاً.

تبدأ القصة بخروج شيخ كبير يعني أنه قد حضر عصر النضال وأن خبرته في الحياة واسعة من مركز البريد. ولاحظ أن مركز البريد في حقيقته أداة تواصل بين رجل في مكان وآخر في غيره، ويريد أحدهما إبلاغ الآخر برسالة في معظم حالاتها تكون خطيرة وهامة وموجزة. وخرج هذا الشيخ من مركز البريد الذي أوصله ببلد بعيد برسالة من خارجٍ يقول عنها: " رسالة من الخارج من بلد بعيد جداً من أعطى عنوان العابد بن مسعود الشادي إلى الخارج حتى يكتب له؟ ترى من يفكر في الكتابة لي من الخارج؟"

ثم جلس على صخرة يفكر في موضوع الرسالة الذي لم يصرح به حتى عندما بدأ يستأنف صعوده إلى الطرف الآخر، والذي يمثل بداية الزمن على خط طولي تصاعدي مع وجود نقاط ارتجاع إلى الخلف تقطع هذا الخط، فيقابل شيخاً :- أيْ رجلاً مسناً عاش

[1] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، المرجع السابق، ص32

العصرين – فيبدأ بطرح السؤال وهو عودة الشهداء فإذا الإجابة بأن هذه العودة ستتم عنها مشاكل عويصة.

ويسير العابد في الطريق يسأل أي شخص يقابله هذا السؤال. ولكن نريد أن نقف عند بعض الجمل والردود. فعندما قابل شيخ البلدية المعروف بخيانة أبيه لأمته وعرض عليه السؤال رد عليه: " الأمر بالنسبة لي بسيط إنهم مسجلون في سجل الوفيات وعليهم أن يثبتوا حياتهم من جديد. لن يتسنى لهم ذلك حتى تنتهي مدة انتخابي على الأقل."

إذاً هو خائف من العزل عن الكرسي؛ لأن تلك العودة ستكون عودة من يريد إحقاق الحق, ومن نقطة أخرى فهم عنده المكافحون, والمكافحون بالنسبة إليه . شهداء كانوا أو غير شهداء . أموات يجب أن يظلوا يكافحون من أجل إثبات حياتهم ". هذا هو وواقعنا الذي يمثله شيخ تلك البلدية[1] .

ثم يثبت الكاتب بالدليل القطعي نسيان الشعوب لزمن النضال المفقود من ذاكرتهم لذلك قام هذا الشعب بانتخاب هذا الرجل إن هذا يعتبر " الاستسلام المطلق لموجة العفو العام عما سلف " مما ينتج طي صفحة الثورة " والكاتب يريد لهذه الصفحة أن تظل عالقة بالأذهان.

إن الطاهر يرى الشهداء أحياءً في الدنيا بتحريرهم لبلادهم.

المهم أن هذا الخائن تقلد مشيخة ورئاسة البلدية.

وفي طريق يقابل منسق القسمة الخائن بدوره ولكن خيانته لا يعلمها إلا الشهداء، والأحياء يعتقدون فيه النضال، إذاً الحقيقة دائماً عند المناضل, الحقيقة دائماً مخفية غائبة.

[1] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، المرجع السابق، ص38

ولكن توقفنا عبارة هذا المنسق " وعندما يبرهنون على طاعتهم وإخلاصهم ونصحيتهم يرقون إلى خلايا المناضلين ". هل سار المناضلون الحقيقيون المحبون وطنَهم في نظر القانون متهمين بالخيانة لمن أفدوه بدمائهم؟! إنهم فعلاً هكذا لأن أصحاب القانون خونة. أو لأنهم ليسوا موجودين على الساحة فكيف يكون لهم الدفاع. صحيح " حيثما شاء الحي وجه رأس الميت، والحي هو القانون هم الساهرون على تطبيقه، والميت هو هو " إن الحي هنا هو الذي له سلطان على الإعلان الحي هو الحاضر الغائب، هو الذي يحصد ما جناه الميت الغائب الحاضر، الزارع النخلة في الظلام فتثمر في النور ولكن من الذي زرعها؟[1]

لماذا عليهم أن يتدربوا على الحياة في مكان آخر أولاً كما قال المناضل الحقيقي للعابد؟! ما هي الحياة في نظره التي لا يستطيع أصحابها الذين صنعوها أن يعيشوا فيها؟ إنها حياة صنعوها ولكن زخرفها غيرهم بالمَيْن.

حتى النساء يحولن بيوتهن إلى خمارة. أبيت الشهيد يحول إلى خمارة، أم الحياة كاملها تحول إلى مهزلة في غياب الجدية؟ لذلك عندما يُتحدث عنهم " يصبح في غاية الجدية."

إن القطار سار في اتجاه النور يحفر لنفسه في ظلمات الأنفاق حتى بَصُر بالطريق ولكن هؤلاء ما زالوا في عربة لم تخرج من النفق بعد. فلذلك يجب أن يأتيها قطار آخر- لاحظ أن القطار لا يسير إلا بقوة وسرعة هائلتين- يخرجها من تلك الظلمات. ولكن ما نوع هذا القطار؟ أهو كالقطار الذي خرج منه أو أنه قطار سيصطدم فتعود العربة إلى الطريق.

[1] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، المرجع السابق، ص40

لماذا نحن مصرون على أن نستأنف حياتنا بدون جزء كبير منا بدون وضع أيْ حساب لهم؟ مع العلم أنهم هم أصحاب تلك الحياة وهم صانعوها، إن السرقة لا تتم من الأعداء فقط ولكن ربما تأتي من جارك ولذلك يكره دخول الشرطة بيتك.

حتى شيخ المسجد اعتبر عودتهم كفراً لأنهم ليسوا المهدي أو المسيح عليه السلام. كلا إن المسيح عليه السلام في حد ذاته يعتبر عودة للشهداء وللحق وللعدل, وإن وجود المهدي في عصر فسد دليل على إصلاحه، لماذا لم يفهم شيخ المسجد هذا؟ ولماذا لم يتقبل فكرة عودتهم مع إنهم سيعودون في جسد غيرهم؟ والأرواح متجانسة الفكر والعمل .

هب الخونة عقدوا اجتماعاً المختلفون تصالحوا المركب واحد اتفقوا على خيانته لأنه يجاهر بعودة الإصلاح أرادوا أن يقبضوه ليطفئوا هذه الفتنة، اللص يكره بوق الشرطة. في الوقت الذي لايزال الشيخ ينحدر إلى الطرف الآخر إلى سكة القطار حاول أن يوقف هذا القطار فلوح له برسالته ولكن لا حياة لمن تنادي فصدمه القطار. إن النهاية ليست انتحاراً[1]

ربما تعد نوعاً من تغيير الواقع بالوقوف أمامه.

ربما أراد من القطار أن يخرج العربة لكنه لم يستجب بعد.

ملاحظات وتأملات:

1 –يتم فضح كل شخصية عن طريق المناجاة حتى لا يشعر أحد بذلك والحقيقة غائبة دائماً.

2 –إن سير الزمن تصاعدياً ثم تقطعه نقاط الارتجاع يدل على أن الماضي ليس بغائب عن هذا الخط, ولكنه يُنسى دائماً ربما لأنه هو الصحيح.

[1]محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، المرجع السابق، ص42

"3 –عندما يتعلق الأمر بالشهداء يصبح في غاية من الجدية" أترى الحياة بعدهم أو بغيرهم هزلاً؟

4 –نجح الكاتب في تصوير استفادة الناس من موت الشهداء وركونهم إلى النسيان لذلك "الاستسلام المطلق لموجة العفو العام سلف.

5– كثرة استخدام الأفعال مما يدل على تغير الأزمان والأوقات والانتقال من زمن النضال إلى زمن الاستغلال إلى النضال مرة أخرى وهكذا .

6– جعلَ ما يفعل في الزمن الماضي سبباً لما سيفعل في الزمن الحاضر، كشيخ البلدية ابن الخائن عندما قال :" إذا ما عاد ابنك مصطفى فسأنتقم لأبي ". فجعل ما سيفعل في الحاضر " فسأنتقم " متوقف على ما مضى " عاد."

7– يترتب على النقطة الرابعة عودة زمن الشهداء مرة أخرى.

8– مفتاح فهم هذه القصة: " حيث شاء الحي وجه رأس الميت" .

9– اعتبر الكاتب أن غياب الشهداء مؤقت وليس دائما، وأن عودتهم تكون عند كثرة الباطل :

يقال أن الشهداء سيعودون هذا الأسبوع مسلحين بالسيوف وبالمدافع وبالقنابل وبالرشاشات وفي يد كل منهم قائمة طويلة فيمن يجب أن يقتل, وأنهم لا يموتون مثلنا بالرصاص أو بالطعن أو حتى بالنار. يؤدون رسالتهم ثم يحملهم الله إليه مرة أخرى ". إن هذه العبارة تفسر قوله صلى الله عليه وسلم:" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي الله بأمره ". [رواه البخاري] إنها تؤكد التوالد الدائم للشهداء من أجل مساندة الحق.

10– لغة الحوار والمناجاة مزخرفة بالألفاظ الثورية الحماسية :" ستغتال إن عاجلاً أم آجلاً, الجرثومة الخطيرة في هذه الحركة, وقعنا في فخ الخونة والانتهازيين."....

11- الشهيد في نظر الطاهر من ساعد على إحقاق الحق حتى وإن لم يمت، " أنا أمامك. ألست شهيداً "، " الأمير عبد القادر- مثلاً - ظل شهيداً سبعة عشر سنة وبقي بعد ذلك قرناً ونصف ". إذاً الشهيد هو ما غير الباطل, فلولا استشهادهم لظل كل ما كان على ما كان

12- المكان يسير من أعلى إلى أسفل، . أي تنازلياً . وهو صغير في حد ذاته لكنه يمثل كل مصر مهما بلغ كبره.

13- أكبر دليل على عودة الشهداء أو زمن النضال من جديد حديث وصراخ وإعلان هذا الشيخ والذي هو ابن شهيد في زمن يحتاج قطاراً كي يخرج عربته.ثم إن العودة قريبة بقبول الشعب لهذا النداء، والنداء كان صباحاً ولكن القبول كان في نفس الوقت مما يدل على تقبل عودة عصر النضال عند العامة, ولكن الكره يأتي من قبل الخاصة .

يتراءى للشيخ "عابد" في منامه أن ابنه الشهيد "مصطفى" والشهداء الذين معه سيعودون.. الفكرة تهيمن عليه، وتتحول إلى هاجس مرعب مثلما هو مفرح.. يبدأ الشيخ "عابد" في كشف رؤيته لمن حوله.. الجميع يسمع منه أن الشهداء سيعودون هذا الأسبوع.. إلا أن الشيخ "عابد" لا يجد من يتحمس للرؤية.. بل يستشعر "ذعراً" في عيونهم من هذه العودة المباغتة!

يستوقف الشيخ "عابد" كل من يصادفه في بلدته.. يقول له في ما يشبه الامتحان: "ماذا أنت فاعل لو عاد ابنك الشهيد..أبوك الشهيد.. أخوك الشهيد.. زوجك الشهيد.. صديقك الشهيد"..؟! وفي كل مرة يجد الشيخ "عابد" عدم تصديق مشفوعاً بالرثاء لحاله الذي وصل إليه، بعد أن استشهد ابنه "مصطفى" الذي كان زينة شباب بلدته وظهْرَ الشيخ "عابد" الذي يتكئ عليه!

البعض ممن حملوا كلام "العابد" محمل الجد ردوا عليه بجدية أيضاً، ومن هذا البعض "مسجل المواليد والوفيات" الذي يؤكد له أنه لو عاد الشهداء فلابد من شطب أسمائهم من سجل الأموات وإعادة قيدهم في سجل الأحياء، وهذا سيستغرق وقتاً طويلاً.. ولا يخفي آخرون مخاوفهم للشيخ "عابد" حيث يقولون له إن عودة الشهداء ستُحدث "ربكة" كبيره في حياتهم، وأول من سيدفع ثمن ذلك هم الذين يتقاضون"منحة" مالية نظير استشهاد أقربائهم.. كيف سيعيش هؤلاء لو عاد الشهداء؟! وماذا ستفعل زوجات الشهداء اللاتي تزوجن وأنجبن من بعد غياب أزواجهن الشهداء؟!

يصمت الشيخ "عابد" مستعجباً إزاء هذه العاصفة من الاستنكار والاحتجاج لعودة الشهداء لكن "ثورة الخوف" تتغلغل في نفوس من يهابون هذه العودة المفاجئة، وفي مقدمتهم الذين تسلقوا على ظهور الشهداء، وورثوا أمجادهم وبطولاتهم، وحولوها إلى تركة مباحة لمن يجيد اصطياد الفرص، واللعب على الحقائق التي لا يعرف أسرارها إلا من استشهدوا[1] !!

كثيرون هم الذين سيتضررون من عودة الشهداء..منهم من ولوا الأدبار في ساحة المعركة واختاروا "الخيانة" حفاظاً على أرواحهم.. لو عاد الشهداء سيشهدون على خيانتهم وينفضح أمرهم .. ومنهم من نال أرفع الأوسمة وتولى أعلى المناصب، رغم أنه لم يحمل البندقية في وجه عدو أو يخوض غمار الموت !! لو عاد الشهداء، حتى الأرض ستخجل من ابتلاع أمثال أولئك الخونة!!

إنها خلاصة قصة " الشهداء يعودون هذا الأسبوع " للقاص والروائي الجزائري الراحل "الطاهر وطار" التي صدرت عن سلسلة "كتاب في جريدة" ضمن مجموعة أخرى من القصص لتكشف تلك القدرة الهائلة لأديب مثل "الطاهر وطار" في معالجته لأمور لا

[1] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، المرجع السابق، ص32

تخطر على البال رغم أنها تتمسرح على أرض الواقع، ورغم أن رائحتها تكاد تزكم الأنوف..إنها رؤية "موضوعية" أكثر من كونها "فنتازية" لاجتراح الراهن الاجتماعي والسياسي في الجزائر التي استشهد لأجل استقلالها مليون شهيد، وبعد كل ذلك ظلت الجزائر تشهد إعصاراً متواصلاً من "الفتنة" وحمامات الدم، دونما مبررات أو مسوغات يمكن أن يقبلها عقل، وكأنما هذا الاستقلال الوطني جاء محض صدفة، ودون إراقة دم شهيد واحد.

"الطاهر وطار" المفجوع بالمحنة الجزائرية يحاول من خلال "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" الرد على "المخربين" و"العابثين" بطريقته الخاصة فيزف بينهم بشرى عودة الشهداء، كي يفيقوا من إدمان إراقة الدماء، ونشر الذعر بين الأحياء .. فالمواجهة بينهم وبين الشهداء قد تشعرهم بشيء من الخجل، وتجعلهم أكثر إحساساً بقيمة ذلك الاستشهاد الذي تحول إلى مكاسب رخيصة وأطماع دنيوية لا تنتهي .!

..حقاً ماذا سيفعل هؤلاء لو عاد الشهداء؟[1]!

[1] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، المرجع السابق، ص43.

المبحث الثاني : التناص الديني في الرواية

إذا حصلت لدينا قناعة، أنّ كلّ نص هو تناسل وتناسخ لعدة نصوص، فإنّ نص" الشهداء يعودون هذا الاسبوع " ؛ يكاد يتصف بالنقاء من شوائب النصوص المذابة فيه، وعليه يتفرد صاحبه بالملكية التامة، ومع هذا أمكننا استحضار بعض النماذج من التناص (Intertextualité) (و إن كانت لا تشكل ظاهرة، لكنها تحقق الاستثناء، و ذلك بعيدا عن معنى التضمين التراثي لكن بفاعليته التناصية، حسب تعريف جوليا كريستيفا "Julia Kristevaللتناص بأنه ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتن ا. فى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى هذه الملفوظات تكون محملة بدلالات جديدة قابلة للحياة مرة أخرى، في النص الحاضر[1].

و تجدر الإشارة إلى أن تمييز إشارات المبدع وتلميحاته لنصوص أخرى أمر نسبي لأن ذلك يعتمد على المعرفة، أي معرفة المتلقي ومدى اتساع ثقافته حتى يتسنى له إثراء قراءته للنص و تأويله <<فالمعرفة ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي>>فكل حضور ذهني لدلالة ما ونحن نقرأ نصا فإن مرده إلى التناص (Intertextualité) (وعلينا حنيئذ أن نبحث عن مصدر لذلك الصدى في مخزوننا الثقافي الخاص ومنه نتعرف على كيفية استثمار المبدع له، فالتناص لا يعدو أن يكون آلية من آليات تعميق التجربة وتغذيتها و إغنائها بالدلالات[2].

[1] ليا كريستيفا: علم النص، ص21:

[2] محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري) استراتيجية التناص(، ص12:

و هكذا يتضح لنا أن آليات توظيف النص الغائب / المتناص في النص الجديد يتم وفق عدة أشكال حسب اصطلاحات الدارسين، غير أننا نفضل أن نصنف هذه النماذج إلى أربع مرجعيات[1]:

2. 1. 1. المرجع الديني: القرآن الكريم:

لقد تفاعل نص الشهداء يعودون هذا الأسبوع مع النص القرآني فاتخذ أشكالا مختلفة من اجترار الآيات بلفظها و معناها أو تحويرها وفق حاضر النص الجديد، و هذا ما اتضح لنا عند تأملنا لهذا المقطع

<<العابد: ما نولوش كيفهم ياولدي..... ما هوش في كل المقابر انتاع الشهداء، اللي في كل قرية دشرة، مكتوب و: لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"

و لما كان الاجترار هو <<:تكرار للنص الغائب من دون تغيير أو تحوير و هذا القانون يسهم في مسخ النص الغائب لأنه لم يطوره و لم يحاوره و اكتفى بإعادته كما هو أو مع إجراء تغيير طفيف لا يمس جوهره بسوء(>>

فإن نصنا اتكأ على نص ديني غائب فجاء التناص من غير تحوير أو تغيير فنرى أن الكاتب أعاد الآية القرآنية من دون إضافة

و هذا راجع في اعتقادنا إما إلى نظرة التقديس و الاحترام للنص الديني أو إلى ضعف المقدرة الفنية و الإبداعية لدى الذات المبدعة في تجاوز هذه النصوص شكلا و مضمونا، إذ تبقى النصوص الجديدة أسيرة لتلك النصوص السابقة.

إلا أننا نرجح العامل الأول على اعتبار أن ميزة النص القرآني في كونه <<يعطي ولا يأخذ، يهيمن ولا ينصهر، يضفي ولا يذوب، و يكتسب النص الأب منه الثقة به، ولا

[1] نظر: محصول سامية: إشكالية المصطلح والمفاهيم، مجلة دراسات أدبية، 2008ع ، 1ص74-75:

يكتسب هو من الأب شيئا >>و إذا ما راجعنا تقاطع النصين نلاحظ أن المفسرين قد ميزوا بين صنفين من المقاتلين <<بين أن يقاتلوا للآخرة كما يقاتل المؤمنون، و بين أن يقاتلوا إن لم يكنم غم الآخرة دفعا عن أنفسهم و أهليهم و أموالهم فهذه الإشارة النصية ظهرت لنا من خلال طرح فكرة العودة المحتملة؛ أ تكون العودة من الآخرة أم من الدنيا ؟ في قوله << :العابد: وصلتني برية[1]!

علي: ويخلو من الاخرة و الا من الدنيا؟

و من هنا التبس عالم الحياة بعالم الموت و أصبحا وجهين لعملة واحدة.

و إذا كان الخطاب (لاَ تحسِبن) موجها للرسول – صلى الله عليه و سلم– مصداقا لما ورد في التفسير الخطاب لرسول الله – صلى الله عليه و سلم– أو لكل واحد، (... أو لا يحسبن حاسب،...)و لا يحسبنهم الذين قتلوا أمواتا أي: و لا يحسبن الذين قتلوا أمواتا؛ و المعنى هم أحياء لدلالة الكلام عليهما، يرزقون مثل ما يرزق سائر الأحياء[2]

يأكلون و يشربون (و في هذا تأكيد على كونهم أحياء مقربين، لهم رزق الجنة و نعيمها[3].

نلاحظ تعطيل فعالية الخطاب(vivacité discours) بأن استحال النص المتناص ميتا بمجرد أن وضع على شواهد القبور . و رغم أن النص بني على قانون الاجترار إلا أننا تمكنا من قراءة هذا المعنى من خلال قوله:

<<العابد: ما نولوش كيفهم ياولدي..... ما هوش في كل المقابر انتاع الشهداء، اللي

[1]بو القاسم جار االله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة مصر، جمهورية مصر العربية، (د ط) ، (د ت (، ج ،1ص38 :

[2]نفس المصدر ص 53.

[3]أبو القاسم جار االله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ص385–386

في كل قرية دشرة، مكتوب و: لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل االله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون"[1]

و كأن بالزمن يعود بنا إلى الزمن الأول زمن المنافقين الذين نزلت في شأنهم الآية << يوم أحد يوم التقى جمعكم و جمع المشركين ليميز المؤمنون و المنافقون "[2]

في حين يعد الامتصاص آلية تكثيفية / إيجازية فهو عبارة عن <<عملية إعادة كتابة النص الغائب وفق النص الجديد ليصبح امتصاصا له متعاملا معه] بشكل [حركي و تحولي (>>يتم من خلاله استحضار(eidétiquement) نصوص دينية معلومة عند المتلقي الذي يقرأ جزءا منها و يتم استذكارها، لأنها معروفة و ليس هناك أدنى حاجة لذكرها كاملة في النص، كما في المقطعين التاليين:

المقطع الأول:

المجموعة: امسحي عينيك دمعك عزيز خليه لغدوة عندما الصباح يتنفس[3]

المقطع الثاني:

<<العابد: صح، شيخ كبير رافد هم كبير صح !شيخ كبير. عييت بزاف ... العظم وهن ، و العين قصرت، و لا من بغى يفتح هذا الراس اللي عاش سبعين[4]

إن الامتصاص جرى على صعيد الألفاظ المحدودة (الصباح يتنفس، العظم وهن)فمن خلال هاتين الجملتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم؛ نجد أن القارئ لا يستحضر الآية و السورة كاملة فحسب، إنما يستحضر معها كل الأحداث و المناسبات

[1] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، ص1:

[2] أبو القاسم جار االله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل،ص384 :

[3] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، ص9 :

[4] المصدر نفسه ، ص21:

التي جرت في ذلك العصر. أما الآيتان كما ورد ذكرهما في القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ والليلِ إذَا عسعس و الصبحِ إذَا تنفّس إنه لَقَولُ رسولٍ كَرِيمٍ ﴾، [1] يقول أيضا: ﴿ قَالَ رب إني وهن العظْم مِني واشتعلَ الرأْس شيباً ولَم أَكُن بِدعآئِك رب شقِياً ﴾ .[2]

الظاهر أن الامتصاص هنا موجز إذ لم يذكر الكاتب الآية كاملة و اكتفى بذكر كلمات منها في حين عمد القارئ إلى استحضار الآية القرآنية كلها. و إذا ما حاولنا ربط العلائق المشتركة بين النصين مستفيدين بما جاء في كتب التفاسير عن معنى (تنفس الصبح)

<<إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح و نسيم، فجعِل ذلك نفسا له على المجاز [3]

نلاحظ أن المعنى المجازي ذاته وظف في المقطع الأول حيث يحيل(الصبح) هنا بالاقتران بالدال (غدوة) على الحرية و الاستقلال.

و إذا ما عدنا إلى المقطع الثاني ينقلنا الدالين (العظم وهن) إلى سر إسناد النبي زكريا –عليه السلام– الوهن إلى العظم <<و إنما ذكر العظم؛ لأنه عمود البدن و به قوامه، فإذا وهن تداعى و تساقطت قوته، و لأنه أشد ما فيه و أصلبه؛ فإذا وهن كان ما وراءه أوهن، و وحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية"[4]

يتبين لنا من التفسير أن (للعظم) ثلاث مسوغات نوجزها في كونه: العمود و القوام، و أصلب ما في البدن، و المحدد لجنس العظام، و لذا يكون القصد(lintention) في النصين واحد.

---

[1] سورة التكوير: رقم :، 81الآية18 :

[2] سورة مريم : رقم :، 19الآية4 :

[3] أبو القاسم جار االله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، ص553 :

[4] لمرجع السابق، ج ،3ص93 :

و عليه فـ) وهن العظم (هو المعنى الإيحائي Connotation) (لـ)سبعين سنة(المعنى الحرفي(Dénotation) و عيه فانتظار النبي زكريا – عليه السلام– للمولود يحيى – عليه السلام– في سن متقدمة– وهن العظم –

<<اختلف في سن زكريا – عليه السلام– فقيل: ستون و خمس و ستون و سبعون، و خمس و سبعون، و خمس و ثمانون>> [1]والوضعية نفسها مع البطل (العابد) المنتظر عودة ابنه (مصطفى) الشهيد في هو في سن السبعين في قوله:

<< العابد: صح، شيخ كبير رافد هم كبير (...) عشت سبعين (...) صح !شيخ كبير. عييت بزاف(...) العظم وهن ، و العين قصرت، و لا من بغى يفتح هذا الراس اللي عاش سبعين ... و شاف سبعين، و سمع سبعين وتقاس في القلب سبعين[2] ...>>

و إن كان انتظار زكريا – عليه السلام– مصحوبا ببصيص من الأمل لأننا قد نسمع بعاقر قد رزق بالولد و كذا المسن، إلاّ أنّ انتظار (العابد) لابنه الشهيد ميؤوس منه، و من ثمة يكون النص الحاضر أكثر شعرية من النص الغائب.

لقد تعامل الكاتب مع القرآن بالامتصاص و الاجترار و كل ذلك لأن ثقافته أمدته بمثل هذه الفنيات الأسلوبية كما نشير إلى أنه ليس من الضرورة أن نؤكد تدين الناص رد تناصه مع القرآن، لسبب بسيط هو علمنا بكتابات تركب الخطاب الديني لتفجيره من الداخل

<< فالتناص لا بد أن يكون مجرد لمحة فنية تثير انفعالا ذاهلا في المتلقي و تجعله من تلقاء ثقافته يستعيد دلالة قصة معينة أو يدرك ما وراء تعبير معين[3]>>

---

[1] المرجع نفسه، ج 3،ص92–93 :

[2] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، ص21:

[3] مصطفى رجب: متى و كيف يقتبس الشاعر من القرآن الكريم ؟ مجلة الفيصل، 2000السنة ،24ع ،288ص56 :

لكن لا نملك إلاّ أن نقر حقيقة أنّ القرآن يبقى بارزا ولا ينصهر في نسيج النص الجديد ،بل يظل محافظا على طبيعته السماوية ؛كالذهب إذا لامس التراب.

المبحث الثالث: التناص التراثي الشعبي في الرواية

التراث هو الموروث الثقافي و الديني و الفكري و الأدبي و الفني، وكل ما يتصل بالحضارة أو الثقافة، فهو إذا يمثل ذاكرة الإنسان الواعية لماضيه. لهذا لا نملك إلا أن نقول <<أن التراث هو شيء حي في حياتنا (...) و ليس تاريخا تقرؤه و إنما تمارسه و تحياه [1]>> ولكن كيف نمارسه و نحياه ؟ بل كيف نستحقه ؟ لن نستحقه، و لن نحقق الممارسة إلا بامتلاك القدرة على الإبداع فالمبدعون يعيدون صياغة التراث ويجعلونه متفاعلا مع أفكار العصر حتى يخرجوا بصيغ و أفكار جديدة يتجسد فيها التحام تيار التراث المستمر من الداخل بتيار الواقع الحاضر بكل ما يطرح من أفكار و تحديات و تناقضات، دون أن يضطروا إلى تزوير التراث أو اصطناعه أو تحميله ما ليس منه.

وحين يتم التعامل مع نص تراثي، فإن هذا يخلق جدلا حرا بين نصين – النص الغائب، و النص الحاضر– و إذا وفق المبدع في الاختيار و التعبير، و الوصول إلى جذر عملية التناص Intertextualité) (فإن هذا ما يثرى النص و يفتح آفاقه و يوسع فضاءه.

ميشيل عفلق: البعث و التراث، مجلة أقلام، 1980السنة 15ع، 7ص154 :

)*(المثل: مثل كلمة تسمية يقال؛ هذا مثله و مثله كما يقال شبهه و شبهه)...(ومثل الشيء بالشيئ؛ سواه وشبهه به و جعله مثله وعلى مثاله

)...(و كأن المثل مأخوذ من الممثّل لأنه إذا شنع في عقوبته جعله مثلا و علما ، ينظر: منظر: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي

المصري المعروف)بابن منظور (: لسان العرب،، مج 8،ص :، 201–202–203مادة): ل،م (، ن [1]

و بعد هذا نعتقد أن " محمد بن قطاف" أراد استلهام التراث بأشكاله المختلفة، وتوظيفه في نصه المسرحي (الشهداء يعودون هذا الأسبوع)، و كأنه بذلك يسعى إلى الربط بين الماضي و الحاضر في عديد من شفراته ، و لهذا وجدنا أنفسنا أمام العديد من العناصر التراثية، و سوف نكتفي هنا بالأمثال،الألوان، الأعداد ، الحلقة، لنرى مدى استطاعة " الطاهر وطار" الإفادة من التراث في تحريك خيوط التناص(Intertextualité)داخل النص.

إن الحديث عن تناص الكاتب " الطاهر وطار" مع التراث الشعبي وتقاطعاته معه من خلال المثل Proverbe) (هي حاجه ملحة تفرضها القيم الثقافة و الفكرية الأصلية للشخصية الوطنية، و المثل شكل من الأشكال التعبيرية الأكثر انتشارا وشيوعا بين الناس، على مختلف أعمارهم ومستواهم وجنسهم.

فهو عبارة عن <<خلاصة حقائق حضارة المجتمع الإنساني، أي تكاد تكون حقائق إنسانية شاملة[1] >>فهذا الشكل التعبيري مرتبط بآمال الشعوب و آلامها، إنه الوعاء الجمالي لروح الشعب يصور حركته الاجتماعية والثقافية و الفكرية و ما ينبغي تسجيله أن النص المسرحي لـ " محمد بن قطاف" تقلّ فيه ملفوظات/ الأمثال، لكن هذا لا يمنع أن نستشهد بنموذج تكون قراءتنا له قراءة إيجابية تفاعلية توليدية – بعيدا عن تلك الأمثال السطحية– و ذلك من أجل إبراز المعاني المسكوت عنها، فكان هذا المثل: <<علي: يا عمي العابد قلبي راه معمر ما تزيدليش عليه. المثل يقول:وين بغى الحي يدور راس الميت>> [2]

[1]محمد المرزوقي: الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس،)د ط ،)،1967ص3 :

[2]عبد الملك مرتاض: عناصر التراث الشعبي في)رواية اللاز (عبد الملك مرتاض: عناصر التراث الشعبي في رواية اللاز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط ،)،1984ص ، :،1984ص6 :

نقترح أن نقرأ هذا المثل تحت علاقة الاستشهاد (La citation،)ذلك أن << الاستشهاد بسيط وبديهي فإنه يفرض نفسه في النص دون أن يتطلب من القارئ إعمال الذهن أو معرفة خاصة. إنه يعين نفسه بنفسه و . لكن العناية الكبيرة مطلوبة لاكتشاف هويته وتأويله لم : اذا اختير النص المستشهد ؟به ما هي حدود تقطيعه، و طرق تركيبه؟ و المعنى الجديد الذي أضفي عليه بعد إدراجه في السياق الجديد ؟ إنّ كلّ هذه العناصر أساسية لفهم دلالته >>

يتبين لنا من القول أن الدارس لا يجد صعوبة في تحديد المثل و إرجاعه إلى مصدره، لكن الشأن كلّه يكمن في كشف شعرية هذا التوظيف وهذا و هذا ما نريد الوصول إليه من خلال هذه الدراسة.

فكانت ملاحظتنا أن المثل تكرر على مستوى نص المدونة ثلاث مرات ضمن مقطع قصير لا يتجاوز ستة أسطر، لكن لم يكن التكرار من أجل التكرار، بل في كل مرة يذكر إلا و يشحن بدلالات إضافية،كما أن الشخصية التي ورد على لسان المثل هو علي الذي وصفه(عمي العابد) بالنقاء و الطهارة ماضيا و حاضرا (الماضي انتاعك صافي على الحليب، الملايكة انتاع هذه القرية) فالمثل ينساق مع الشخصية المرددة له <<فهو يعكس أفكارها و ثقافتها و سلوكها كما يعكس فلسفة التفكير لديها [1]>>

و لمّا كان للأمثال <<ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى وحسن التشبيه[2] >> فإنّ الناص قد استغل هذه الخلال، إذ قارب شيئا معنويا، يدرك بالعقول (اليوم كاين حاجة اسمها البيروقراطية) وجسده ماديا في صورة متحركة (يدور راس الميت) إذ معلوم أنّ كلّ

[1] شرفي عبد الكريم ، مفهوم التناص من حوارية ميخائيل باختين إلى أطراس جيرار جينات ، مجلة دراسات أدبية ،ع،2ص70.

[2] بد الرحمن جلال الدين السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، دار الفكر ، ج ، 1ص48 .

شيء يدل على طبيعته ويشي بمعدنه، وعليه حقق هذا المقطع درجة أكبر من الإقناع والحقيقة.

فلما كان نص المثل الشعبي في شموليته اللغوية و الأدبية و البلاغية هو خطاب تشبيهي، و منه فإن حضوره في الفضاء التعبيري حضور تشبيهي، حيث <<أن المثل لا تستقيم له حياة لغوية و أدبية و بلاغية إلا إذا استطاع أن يشبه موضوع بموضوع آخر (...) فالتشبيه هو اللحمة و الرحم الذي وهب الحياة للمثل>> [1] و لا تتأتى له هذه الصورة إلا إذا توافرت له أدواته من معنى و صياغة و لفظ، غير أن الوارد في نصنا ملفوظ فائض عن نص المثل و ذلك في قوله:

<< وين بغى الحي يدور راس الميت. و الحي هو القانون [2]>>، فقد عمل هذا الفائض (و الحي هو القانون)على استفزاز (عمي العابد) فتساءل <<:و الميت شكون>> فأحدث بذلك براعة في تشكيل صورة (المقابلة) منحت المثل جمالا و تأثيرا هذا من جهة، و من جهة أخرى أدى الفائض إلى خلخلة بنية الخطاب المستقرة و هذا ما نستشفه من قول:

<< علي: يا عمي العابد ما تحرجنيش، انت تعرف>>

فعبارة (ما تحرجنيش)تسربت من بين شقوق الخطاب لتمنع فضح الحقائق، مما جعل المثل يسترجع خاصية التعمية أو بالأحرى صورته الأصلية <<و إرادة الحقيقة تخترق

[1] محمد سعيدي: التشاكل الإيقاعي و الدلالي في نص المثل الشعبي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د ط)،2009ص90

[2] محمد بن قطاف: الشهداء يعودون هذا الأسبوع، ص14 :

القول و تمارس من ورائه ضربا من الإبعاد بحيث ينطق الخطاب بأشياء و يسكت عن أشياء و يؤكد على معان و يحذف أخرى، و يلتقط دلالات من دون دلالات>>.[1]

و هذا ما يتضح جليا في قوله :

<<علي: (...) اليوم كاين حاجة اسمها البيروقراطية يا عمي العابد ....و هي الرابحة في الاخر يا عمي العابد... وين بغى الحي يدور راس الميت)>>

إلا أن المثل لم يكد ليستقر على هذه الصورة حتى انفلت مرة أخرى في صيغة:

<<علي : في البطاقة يا عمي العابد .... هي الصح اليوم... ما تقدرش تواجه الصح على خاطر هي الصح[2].... >>

ثم يضيف (علي) قائلا << :علي: تبقى البطاقة يا عمي العابد و وين بغى الحي يدور راس الميت[3]>>!

فيكون عود على بدء فالقانون هو البطاقة و البطاقة هي القانون فـ فالناص يقف وقفة طويلة عند ظاهرة الثوري بالبطاقة التي تمكن لحاملها من إثبات انخراطه في صفوف جيش التحرير، هذه الظاهرة التي استفحلت بعد الاستقلال <<كل شيء بالبطاقة اليوم يا عمي العابد؟ الماضي الثوري لابد من بطاقة تشهد عليه. النضال لابد من بطاقة تثبته. حسن السيرة، لابد من بطاقة.. الخيانة فقط، لم توضع لها بطاقة، نعرف كلنا الخائن ولكن لا نستطيع أن نواجهه لان البطاقة هي الصح ."الطاهر وطار" يتماهي في رسم اللحظات التاريخية المهمة في حياة الجزائر فالمرحلة الأولى مرحلة ما بعد الاستقلال أي

[1] ياسين حرب: مداخلات (مباحث نقدية حول أعمال محمد عابد الجابري، حسين مروة، هشام جعيط، عبد السلام بن عبد العالي، سعيد بن سعيد، دار الحداثة، لبنان، ط ، 1985،1ص1 :

[2] المصدر نفسه،، ص14

[3] لطاهر وطار: الشهداء يعودون هذا الأسبوع (مجموعة قصص) ، ص 16-167 :

مرحلة الأحادية، ثم مرحلة التعددية (التسعينات)هذه البوابات هي عتبات للتاريخ ندخل من خلالها عوالم النص

و عالم التناص الذي يدل على كيفية قراءة "محمد بن قطاف" للواقع و للتاريخ، إنها مهارة كبيرة وفنية أكبر في ربط الزمنين، زمن ولى، وزمن حاضر.

فمحاورتنا للمثل كشفت لنا عن زيف الاعتقاد من أن نص المثل الشعبي نص هادئ و بسيط يمكن السيطرة عليه بسهولة و معرفة أسراره الداخلية و الخارجية دون جهد، بل تبين لنا بأنه نصا معاكس و مشاكس يحمل بين طياته متناقضات متصارعة مع نفسها و ذلك امتدادا لما يزخر به المجتمع من رؤى متضاربة، فكان المثل الشعبي وعاء حيا و صورة صادقة حملت هذا التناقض بامتياز.